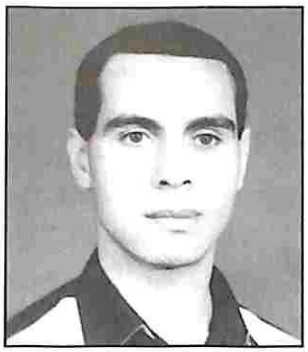

مستويات اللغة والمضمون
في «مذكرات فيل مغرور»
للدكتور حسين علي محمد

بقلم : محمد زيدان
مصر

في رأيي أن وعي الفنان يتشكل عبر شيئين مهمين يتحكمان في مصير العمل الأدبي .

الأول: وعيه بما يكتب .. وذلك وفق منظور فني متميز يخرجه من إطار التقليد الذي عادة ما يهبط بالمبدع .

والثاني : وعيه الذي يتمثل في هذا السؤال القصير «لمن يكتب» ؟وهذا الأخير هو الذي يبرز قدرة الكاتب على اختياره للنوع الأدبي وللفئة التي يتوجه إليها.

فإذا تم للعمل هذان الوعيان، فإننا أمام إبداع حقيقي، يجدر أن نبحث عن مستوياته المختلفة محاولين أن نبين بعض ملامحه الفنية من خلال قراءة متأنية تعطي له حقه دلاليا وتركيبيا، ونبين إلى أي مدى كان وعي الكاتب واهتمامه بطريقة كتابته وبالمنظور الذي أراد، ومن هنا يمكن النظر إلى «مذكرات فيل مغرور»*... للشاعر حسين علي محمد إذ يضع هذه الحكايات الشعرية للأطفال مقتحما هذا الكيان الفذ الجميل، معتمدا على قدراته الشعرية الخاصة من اختيار المعاني والمواقف التي يضفي عليها بلغته جوا خاصا من البساطة والجدة الشعرية، ولعل اختيار الشاعر لهذا النوع من الكتابة يكمن أولا: في أنه شاعر له رصيد من الكتابة المتميزة، وثانيا: يعتمد الشاعر على دراساته ووعيه بأن الأسلوب القصصي من أفضل أساليب التربية التي

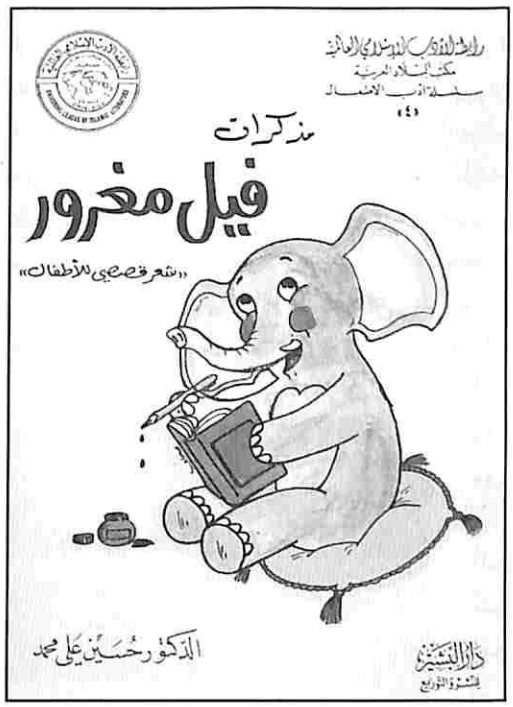

يعتمد عليها المربون في تهذيب الأطفال، بالإضافة إلى أن العنصر القصصي والذي يعتمد على تصعيد الأحداث داخل المواقف الدرامية التي يتعرض لها الشاعر والذي يلبسها في أسلوب شعري شفاف يعتمد على اللغة الهادئة، أكسب العمل أكثر من ميزة، وسنوضح ذلك فيما يلي:

* من إصدارات مكتب البلاد العربية - رابطة الأدب الإسلامي العالمية - سلسلة أدب الأطفال رقم(٤).

مستويات اللغة والتراكيب

أولاً: مستوى التعبير الشعري والقصصي:

فيما يخص اللغة باعتبارها مصطلحا إشاريا ورمزيا يتعامل معه الشاعر فإن تهيئة البيئة اللغوية للمتلقي يعد أمرا مهما في هذه الحكايات الشعرية ونعني هنا بتهيئة البيئة اللغوية .. مراعاة شيئين، الأول: نقل مفردات الموقف الأصلي في صورة مبسطة تراعي التشكيلات الوجدانية للطفل مع عدم الإخلال به، والثاني: محاولة الشاعر التوفيق بين لغة العصر التي يتعامل معها الطفل في بيئته، وبين المفردات الأصلية التي يفترض أنها تكمن في ثنايا الموقف، وقد ظهر هذا واضحا في الحكاية التي تحمل عنوان الكتاب، فزيادة على طرافة العنوان وشحناته العصرية والوجدانية النابعة من مرجعية الحكاية الأصلية لدى الطفل فإنه يعطي إحساسا بأننا سوف نتعامل مع الموقف بطريقة جديدة، فقد احتفظ الشاعر بالأصل القصصي للحادثة مع احتفاظه ببعض مفرداتها اللغوية فنجده يذكر «أرض الأحباش - ملك الحبشة - أبرهة - جبال - هضاب - وهاد » بالإضافة إلى أسماء الأماكن الأصلية « زبيد - رداع - صنعاء - القُلَّيس » وذلك يدل على أننا أمام الموقف الإعجازي القديم .. مع إضافات الشاعر المتمثلة في أسلوبه الشعري الذي ألبسه هذه المفردات، والذي لم يعتمد فيه على المرجع الإيقاعي المعروف مع إثارة وجدان الطفل .. فترك القافية المتداولة في مثل هذه المواقف، وانساب مع المتدارك بخفته وتماشيه مع المواقف التي تحتاج إلى استطراد وتغيير في طريقة الحكي .. وأساليب الانتقال من موقف إلى آخر، واللغة العربية بإمكاناتها الوجدانية والتركيبية تمتلك قدرا هائلا من هذه الأساليب، يلاحظ مثلا كيف يتغير وجدان المتلقي مع التغير الذي يطرأ فقط على استخدام «ضمير المتكلم» على لسان فيل أبرهة .. مما جعل اللغة والموقف أكثر إبهاجا للطفل لأنه لأول مرة يسمع الحكاية على لسان فيل..

اتخذ المؤلف من البساطة مدخلا واسعا لعقول الأطفال وقلوبهم، فأزال الحواجز وأضاع الرهبة معتمدا على قدراته الشعرية الخاصة ولغته العذبة

ثانيا: مستوى اللغة الإشارية والمضمون

لا يغفل القارئ لمذكرات فيل مغرور أن الحس الذي ينطلق منه الكاتب، ويحاول أن يتمثله في مجموعته هو الحس الإسلامي النابع من مسؤولية الأديب المسلم تجاه واقعه وأمته، وبخاصة إذا كان هذا الواقع يتصل بتربية الطفل في مجتمع تكثر فيه التحديات، فقد حرص الشاعر على أن يكسب الطفل .. مضامين مثل «الإيمان - النصر» كما في حكاية فيل مغرور، وأن يربط بين الاحترام والرحمة والسماحة كما في حكاية «ملجأ الأيتام»، والوفاء والرحمة أيضا .. في حكاية « فيل وفي » والذكاء في حكاية « الملك سليمان» وجزاء الحقد والحسد في حكاية «شجرة النبق»، وهذا التكثيف المضموني الذي يسبغه الكاتب لا يغيب على قارئ المجموعة، بل إنه يكتشفه من أول وهلة، وبذلك فإن الميزة الأولى هنا هي اعتماده على

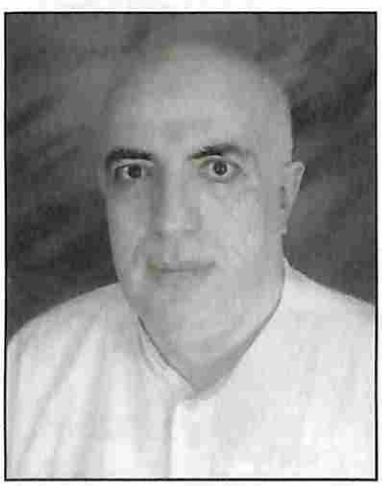

د. حسين علي محمد

اختيار الأسلوب الوصفي في غالبية القصائد أيقظ الوجدان لدى المتلقي ونمى الخيال لدى الأطفال

اللغة كمبدأ للتوصيل، وليس على الألغاز أو الغموض، وهنا يكون هذا التوصيل أو ما نسميه بالمباشرة هدفا فنيا هاما يدركه الكاتب الواعي بطبيعة ما يكتب، وكثيرا ما كان الشاعر يلجأ إلى إظهار الغرض من حكايته في نهايتها مثل حكاية «الطفل الأخضر» ... يقول الشاعر :

مات السلطان
أصبح محمود سلطانا بعده
إذ بايعه الشعب مليكا محبوبا
والسلطان العادل محمود
يحكم دولته بالقسطاس
ويحب الناس[1]

وبذلك فإنه يفرض النهاية الحتمية لمغزى القصص بعد أن يسرد الأحداث فيها بضمير المتكلم أحيانا، ويعتمد الغائب في أحايين أخرى كما نرى، ولعل الأسلوب الوصفي الذي يعتمد على ضمير الغائب هو الأكثر شيوعا في المجموعة الشعرية كلها، وهو أسلوب يشيع بكثرة في الكتابات الأدبية، وذلك لأنه يعمل أكثر على إيقاظ الوجدان لدى المتلقي، فأن تقول «قال فلان، وأراه الآن، وبعد أن حدث، وكلما مشى » وغير ذلك، فإنك تجعل الموقف أكثر ترقبا وتفتح المجال للتخيل أكثر وأكثر .. كما ورد في النموذج السابق . أما الاعتماد على ضمير المتكلم فإنه أسلوب من أساليب حث الطفل على المحاكاة وخاصة إذا كانت الشخصية التي تتحدث عنها الحكاية «فريدة خيرة» فإن السرد هنا أحيانا يثير في نفس المتلقي حب التعاطف وخاصة في حالة المضمون الإسلامي، والشعور بالنفور في حالة المضامين غير الأخلاقية التي تمثلها بعض الشخصيات داخل المجموعة .. يقول الشاعر .. في حكاية «ملجأ الأيتام»:

اسمي حمدان
أتحدث معكم عبر قرون التاريخ
بلدي الفسطاط العربية
أصنع سجادا وأزخرفه كعروس
تعرفني كل المدن وتعشق مصنوعاتي
في أثناء الأسفار
أجد الأطفال عرايا يفترشون تراب الأرض فأحزن
أتمنى أن يجد الأطفال بيوتا
لكن ماذا أفعل
ماذا يمكنني أن أفعل[2] .

ففي هذه الحكاية يصنع الشاعر بأسلوب السرد الذاتي هالة خاصة على شخصيته الذكية المتأملة الباحثة عن الخير، وهذه النماذج هي التي تغلب على الحكايات، وهذا ملمح آخر من ملامح استخدام المضامين عند الشاعر . إذ يغلب عدد الساعين للخير بين شخوصه، فتبدو قيمة «القدوة» كما يريدها الشاعر. فالخير هو المنتصر دائما في النهاية، وهذا ما جاء على لسان المرأة في حكاية الملك سليمان والطفل، عندما رفضت إحدى

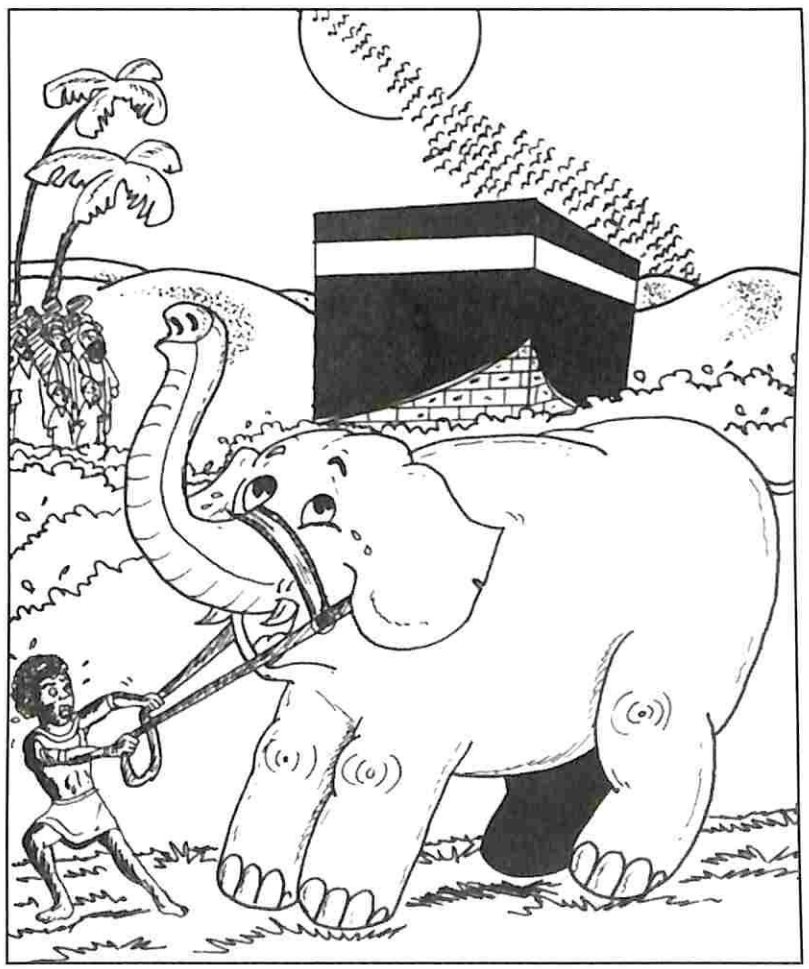

المرأتين أن يقسم الملك سليمان الطفل بينهما فكان جوابها يُنبئ عن طبيعتها وأخلاقها:

يقول الشاعر:

فتأخذه امرأة الحطاب

«تخاطب نفسها بصوت خفيض»

حتى لا أفقد طفلي

«بعد فترة صمت قصيرة»

لو بقي بحوزتها

لو أبقاه الله

يمكنني أن أبصره كل صباح

وأمتع عيني بمرآه[٣]

وهكذا ينجح الكاتب في توضيح قيم الحق والخير في حكاياته.

يبقى ملمح هام من ملامح هذه الحكايات، فبجانب أنها حكايات شعرية تتخذ الدراما أسلوبا، فهي يمكن أن يقوم الطلاب بتمثيلها على خشبة المسرح وقد جربت منها عدة حكايات وكان نجاحها باهرا، فقد استخدم فيها الشاعر تقنيات المسرح كما اتضح من النموذج السابق، وهذا ليس بغريب على الشاعر د. حسين علي محمد فله أكثر من مسرحية إسلامية، بالإضافة إلى دراساته الأكاديمية عن المسرح الشعري. وبهذا فإن الكاتب يعتمد على لغة تصويرية تستند على إعطاء صورة كلية للموقف، ونعني باللغة التصويرية هنا استخدام الشاعر للكلمات التي تشكل في مجملها عددا من الصور الجمالية مستقصيا أطراف الموقف بعناية، وهذا الملمح في حكايات المجموعة كلها، سواء كان هذا الاستقصاء على مستوى الصورة الخارجية للموقف .. نحو قوله في حكاية «الطفل الأخضر»:

محمود طفل أخضر

مات أبوه وماتت أمه

تركاه يتميا وفقيرا

محمود ..

يذهب للغابة كل صباح

يقطع أخشابا من شجر السرو

ويذهب للسوق .. يبيع الأخشاب..[٤].

أم كان الاستقصاء على مستوى استبطان الصورة الشعرية في الحكايات وهوقليل، وربما قيدت الشاعر بعض الأمور الخاصة بطبيعة المتلقي. ولكن على مستوى استعمال اللغة والجمل الشعرية داخل الحكايات كلها كان الشاعر واعيا بالمدرك النهائي للعمل ككل .. كما يقول تودورف « إن الجمل ... في الأدب تتكامل بوصفها جزءا من منطوقات أكبر، وتتكامل هذه المنطوقات مع وحدات أكبر حجما وهكذا حتى تصل إلى كامل العمل»[٥] فكان العمل بذلك منظومة لغوية واحدة تعمل على التأكيد على قيمة محددة .. وقد ظهر هذا جليا في مجموع الحكايات الشعرية التي أرى أنها تشكل قصيدة واحدة متعددة المواقف والمعاني، وقد نجح الشاعر في هذا الربط العضوي نجاحا ملحوظا..

وهذه فاتحة خير من الشاعر أمام هذا النوع الأدبي الراقي الذي يمكن أن يكون بديلا عن المسرح الهزلي ومسرح العرائس للأطفال، فهو يفتح آفاقا لغوية وقيمية للطفل بجانب التشويق،وبجانب المتعة الفنية. ■

الهوامش:

(١) د. حسين على محمد، مذكرات فيل مغرور، ط١، منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٩٣، ص٤٠-٤١ .

(٢) المصدر السابق، ص٢١ .

(٣) المصدر السابق، ص٤٩-٥٠ .

(٤) المصدر السابق، ص٣٥ .

(٥) تزفتان تودروف، اللغة والخطاب الأدبي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت المغرب، ص٤٧ .

ثمار القلوب

(الأمالي لأبي علي القالي)

" دخل الأحنف بن قيس على معاوية ويزيد بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به ، فقال : يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ فعلم ما أراد، فقال: يا أمير المؤمنين ! هم عماد ظهورنا ، وثمر قلوبنا ، وقرة أعيننا، بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف منا لمن بعدنا، فكن لهم أرضا ذليلة ، وسماء ظليلة ، إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم، ولا تمنعهم رفدك فيملوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك. فقال : لله درك يا أبا بحر ! هم كما وصفت".